جامعة المسيلة قسم التاريخ

دعامة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر

التخصص: تاريخ الوطن العربي المعاصر

المقياس: الاستشراق وتاريخ الوطن العربي المعاصر

الأستاذ/ د.عبد القادر خليفي

المحاضرة الخامسة: المدارس الاستشراقية

تمهيد/

في الواقع، فإن محاولة استنباط مدارس للاستشراق بخصوصيات محددة لكل منها تعد من القضايا البالغة الصعوبة، بل المستحيلة، ومع ذلك، يذهب غالبية المهتمين بالتأريخ للحركة الاستشراقية بأهدافها المتنوعة ووسائلها المختلفة إلى أنها عموما تمثل مؤسسة غربية ذات طابع تكاملي تتفق فروعها في مجالات متعددة، وإن اختلفت في بعض الاهتمامات والميول، ومن ثمة فإن الاستشراق يغلب عليه أن يكون ذو طابع واحد وخصائص مشتركة مهما اختلفت البيئات الجغرافية للمستشرقين بين القارة العجوز وما وراء الأطلسي من العالم الجديد.

وقد حاول الباحثون الاجتهاد في تحديد سمة المدارس الاستشراقية فهل يتم وضعها وفقا لمعايير جغرافية؟ أم يتم اعتمادها على أسس موضوعاتية أي بناء على القضايا التي تناولتها بالدراسة، كأن تكون مثلا/ مدرسة تختص بالدراسات القرآنية – مدرسة لمعالجة السيرة النبوية – مدرسة مهتمة بالتاريخ العربي الإسلامي – مدرسة للغة والآداب...الخ، غير أن الرأي الغالب استقر على دراستها على أساس جغرافي، وهكذا كانت المدارس التي سيطرت على المشهد تتلخص في: الفرنسية والبريطانية والألمانية والاسبانية والايطالية والهولندية والأمريكية والروسية.

1/ المدرسة الفرنسية: تعد المدرسة الفرنسية من أبرز المدارس وأغناها فكرا وأخصبها انتاجا ويعود ذلك إلى العلاقة الوثيقة التي ربطت باريس بالعالم العربي والإسلامي قديما وحديثا، سواء أكان ذلك في شكل علاقات سياسية وتحالفات، أم كان

في شكل حروب ومواجهات واستعمار، ومن ثمة كانت من أوائل البلدان التي عنيت بالدراسات العربية والإسلامية، وأوفدت طلابها إلى مدارس الأندلس.

ويذهب يوهان فوك، إلى أن القيادة في مجال الدراسات الاستشراقية، قد آلت في مستهل القرن التاسع عشر إلى فرنسا، بفضل الانجازات الخارقة لسلفستر دي ساسي، وتمشيا مع الثقة المتزايدة في العقل البشري، نجحت أفكار التنوير في هذا البلد في رفض كل معتقد غيبي، وفي تحرير الفكر الأوربي من معتقدات الكنيسة السلطوية، وبالتالي من إعطاء مقومات جديدة للدراسات العربية، بعد تخليصها من قيود اللاهوت المكبلة لها.

والحقيقة أن الاهتمام الفرنسي كان مبكرا، فقد أنشأت فرنسا منذ القرن الثاني عشر الميلادي مدارس لدراسة الثقافة العربية، ومنها مدرسة ريمس Reims كان وراء تأسيسها البابا سلفستر الثاني ومن أشهر مستشرقيها بغض النظر عن تصنيفهم نذكر: البارون سلفستر دي ساسي، ولويس ماسينيون ودي سلان، وليفي بروفنسال، ومكسيم رودينسون، وجاك بيرك، وروجي غارودي ..الخ

2- المدرسة الانجليزية: تتميز بالعمق وهي أكثر المدارس صلة بالشرق بفرعيه الأوسط والأقصى وقد بحثت الحضارة الإسلامية في المنطقة الإسلامية من آسيا كالهند ومنطقة الخليج وفلسطين، وقد بدأ الاهتمام بالدراسات الشرقية الأكاديمية في بريطانيا باكرًا؛ وذلك عندما أسَّس السير توماس آدمز كرسيَّ الدراسات العربية في كمبريدج عام 1632م، ثم كرسيًّا آخر في أكسفورد عام 1636م، وأخذ الاهتمام يتزايد بالمنطقة بعد ترسيخ الوجود في الهند، حيث أصبحت الجغرافية العربية المشرقية هي الطريق الاستراتيجي الموصل إليها.

ازدهرتِ الدراسات الاستشراقية، لاسيما بعد حملة نابليون على مصر عام 1798م؛ حيث تلا ذلك اهتمام الإنجليز بميدان الاستشراق نتيجة طابع المنافسة التي اتسم بها العصر بين الدولتين آنذاك، وقد تناول الاستشراق البريطاني سائر مناحي المعرفة الشرقية؛ من لغات، وآداب، وعلوم وفنون، وتاريخ، وآثار، وكان على رأس المهتمين بالدراسات العربية سيمون أوكلي الذي تولى مهمة تدريس اللغة العربية في جامعة كمبريدج عام 1711م، وألَّف كتابه الشهير "تاريخ المسلمين" الذي تناول التاريخ الثقافي والسياسي للإسلام.

ومما ساعد على نموّ وازدهار الدراسات الاستشراقية في بريطانيا، تكوين الجمعيات والمجلات المتخصصة، وظهور عدد من المتخصصين في الدراسات الاستشراقية، مثل إدوارد وليم لين صاحب كتاب " في أخلاق وعادات المصريين الحديثين "، وترجم كتاب "ألف ليلة وليلة" إلى الإنجليزية وهو يعد من أهم مستشرقي إنجلترا وأوروبا في القرن التاسع عشر، وبرز بعد الحربِ العالمية الثانية مستشرقون لهم اليد الطولى في استمرارية الدراسات الإسلامية في بريطانيا، من أمثال ألفريد جيوم وهاملتون جب، الذي يعتبر أبرز مستشرق بريطاني في القرن العشرين، إلى جانب أسماء أخرى لها بصماتها في هذا الباب بغض النظر عن تصنيفها من أمثال، مونتجمري وات، وديفيد مورجليوث وجون آربري، ورينولد نيكلسون، وتوماس أرنولد.

3- المدرسة الألمانية: دخلت متأخرة قياسا إلى المدرستين الفرنسية والإنجليزية، وبدأت خطواتها الأولى في القرن السابع عشر الميلادي، إلا أن القرن التاسع عشر، يمثل عصر ازدهار الاستشراق الألماني إلى غاية الحرب العالمية الثانية، لكن الباحث أحمد سمايلوفتش، يرى أن الاستشراق الألماني قد بدأ مبكرا نسبيا بالرغم من عدم اعتراف العلماء الألمان بذلك، وأورد بأن أول ألماني تعلم العربية وعنى بدراستها هو ألبرت الكبير 1193-1280م حتى عد من أكبر الأساتذة المسيحيين في الفلسفة واللاهوت.

ويذهب الباحث صلاح الدين المنجد، إلى أن الألمان لم تكن لهم عموما غايات استعمارية أو دينية في المنطقة العربية والإسلامية، بل كانت علاقاتهم بالمنطقة تتسم بالتقارب، كما هو الحال مع الدولة العثمانية، ولذلك جاء الإنتاج في الغالب يتصف بالموضوعية والتجرد العلمي، باستثناء بعض الأعمال التي انحرفت عن جادة الصواب، ونحن لا يمكننا أن نسلم بسهولة لهذه الرؤية، ومن الأسماء الكبيرة نذكر: رايسكه والذي يوصف بواضع الأساس لدراسة العربية في أوربا، وزيغريد هونكه صاحبة كتاب " شمس الله تسطع على الغرب " ، وكارل بروكلمان الشهيرين في القرن العشرين.

4- المدرسة الأمريكية: يرى المهتمون بهذا الحقل المعرفي أن الإسهام الأمريكي في تطور هذا التقليد الثقافي الغربي وخصوصا في زاويته الأكاديمية قد بدأ كما يرى إدوارد سعيد بعد الحرب العالمية الثانية حينما وجدت الو م أ نفسها في الموقع الذي

تركته الإمبراطوريتان الانجليزية والفرنسية، لكن علاقة أمريكا بالشرق لا شك أنها أقدم من ذلك بكثير.

والحقيقة أن احتكاك أمريكا بالشرق يرجع إلى جملة من المحطات والاتصالات بالمنطقة، فقد كان للحرب التي خاضتها مع دول شمال إفريقيا في البحر المتوسط، علاوة على ما خلفته مسألة الأسرى الأمريكان من كتابات أدبية ترصد معاناتهم، ويضاف إلى ذلك العلاقات التي ربطتها واشنطن مع الدولة العثمانية وتوسيع نشاطها التجاري مع البلدان المطلة على حوض المتوسط، وقيام أعداد من الأمريكيين بزيارة المنطقة لدوافع سياحية واستشفائية وحتى استكشافية، ثم ما أعقب ذلك من وجود أمريكي في المشرق العربي في شكل بعثات تبشيرية وجهود علمية توجت بإقامة جامعات في كل من مصر ولبنان وتركيا.

كما أدت الهجرات العربية إلى الولايات المتحدة بداية من مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومشاركة الجالية العربية في عملية إنتاج المعرفة المتصلة بالشرق وبخاصة في برامج الدراسات الشرق أوسطية على غرار تجربة فيليب حتي.

وشهد الاستشراق الأمريكي نهضة شاملة بعد منتصف القرن العشرين، حينما أخلت بريطانيا مواقعها للنفوذ الأمريكي كما ذكر ذلك مايلز كوبلاند في كتابه (لعبة الأمم)، ووجد الأمريكيون أنهم بحاجة إلى عدد كبير من المتخصصين في شؤون الشرق الأوسط، فأصدرت الحكومة الأمريكية مرسوما عام 1952م، خصص بموجبة مبالغ كبيرة لتشجيع الجامعات على افتتاح أقسام الدراسات العربية الإسلامية، واستقدم لذلك خبراء في هذا المجال من الجامعات الأوروبية، وحضر من بريطانيا كل من غوستاف فون جرونباوم، وهاملتون جب، وبرنارد لويس وغيرهم، فأسس هاملتون جب مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد، وأسس جرونباوم مركزاً في جامعة كاليفورنيا بمدينة لوس أنجلوس .

وقد طوّرت الدراسات العربية الإسلامية في الولايات المتحدة لتأخذ مفهوماً جديداً وشكلاً مغايرا فقد انتهى إلى حد كبير عهد المستشرق الذي يزعم لنفسه معرفة كل ما يخص العالم العربي الإسلامي في جميع المجالات، فأخذت الدراسات تصبح أكثر دقة وتخصصا في منطقة معينة، وفي فرع من فروع المعرفة.

5- المدرسة الروسية: تذهب بعض الدراسات، إلى أن العلاقة الروسية بالعالم العربي والإسلامي قديمة، وأن بداية الاتصالات تعود إلى العهد العباسي الأول، ومع

ذلك، فإن الاستشراق يعد حديث العهد نسبيا، فقد حدد العلماء الروس أنفسهم بدايته بمطلع القرن التاسع عشر، لكن يبدو أن هذا التحديد الزمني يرتبط بتطور علم الاستشراق، بوصفه علما مستقلا، يضم عددا من الفروع، وذهب فريق من الباحثين، إلى أن نشأته تحدد بتأسيس المتحف الآسيوي في بطرسبرغ عام 1818م، والذي تحول لاحقا إلى أكبر مركز للاستشرق في روسيا، غير أن العديد من الوقائع، تؤكد وجود بوادر لعلم الاستشراق منذ فترة أقدم، فعلى سبيل المثال، ظهرت ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغة الروسية لأول مرة عام 1716م، على يد رجل يسمى بوسينكوف، كما صدرت عام 1763م أول ترجمة روسية لكتاب " ألف ليلة وليلة ".

6- المدرسة الاسبانية: لقد بدأت حركة الاستشراق بالأندلس منذ منتصف القرن الثامن الميلادي فقد كان الإقبال على العربية جماعيا لا فرديا، ويعترف بهذه الحقيقة التاريخية المؤرخ الانجليزي جورج ميلر في كتابه" فلسفة التاريخ"، حيث يقول:" إن مدارس العرب في إسبانيا كانت هي مصادر العلوم، وكان الطلاب الأوربيون يهرعون إليها من كل قطر.." وقد ظلت تلك المدارس تشتغل في جميع ميادين المعرفة، وعنيت بترجمة آثار العلماء اليونانيين والمسلمين من العربية إلى اللاتينية، وكان من أهم مدارس الترجمة مدرسة طليطلة التي ظهرت عام 1130م، فأعطت ذوقا وروحا لطيفة لأوربا الخامدة، وقد بلغت الأعمال المترجمة خلال الفترة الممتدة بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين ما يتراوح بين 300 إلى 400 كتاب، وكان منها كتب الرازي وابن رشد وابن سينا، وما نقل من اليونانية إلى العربية حول أفلاطون وأرسطو وأبقراط وغيرهم، وقد سبب هذا النشاط العلمي الضخم في الأندلس استشراق عدد كبير جدا من الاسبانيين ومن أهل الغرب عموما.